فجر الهدى والإيمان

صحابيات حول الرسول صلى الله عليه وسلم

ماريـــة القبطيـــة

رضي الله عنها

أمُّ إبـــراهيـــــم

إعـداد : زهير مصطفى بازجي

مراجعة : يوسف عساني

جميع الحقوق محفوظة لدار القلم العربي بحلب ولايجوز إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه
أو طباعته ونسخه أو تسجيله إلا بإذن مكتوب من الناشر .

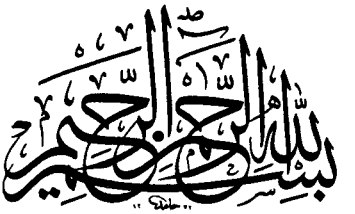
بسم الله الرحمن الرحيم

منشورات
دار القلم العربي بحلب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف ٢١٣١٢٩ - ص.ب: ٧٨ - تلكس: ٣٣١٦٩٢ ريفكو

مارية القبطية

ولادة مارية

في قرية من صعيد مصر ، تدعى "حفن" قريبة من بلدة "أنصتا" الواقعة على الضفة الشرقية لنهر النيل ، ولدت مارية بنت شمعون من أب قبطي ، وأم مسيحية رومية .

وعاشت مارية طفولتها وحداثتها في قرية "حفن" ، وفي مطلع شبابها النضير ، اختارها ملك القبط المقوقس ، وأُختَها سيرين لتكونا في مقربة منه في قصره ، ومن سراياه .

وكانت مارية رضي الله عنها ، على قدر كبير من الجمال والحسن، وذات شعرٍ جَعْدٍ .

وقد سمعت هناك في القصر ، ظهور نبي جديد في جزيرة العرب ، يدعو إلى إله واحد لاشريك له ، ودين سماوي جديد .

﴿ رسالة النبي إلى المقوقس ﴾

وكانت مارية القبطية ، رضي الله عنها ، في قصر المقوقس عندما جاء وفد "حاطب بن أبي بلتعة" مبعوثا من النبي العربي ، صلى الله عليه وسلم ، حاملا رسالة إلى ملك القبط "المقوقس" .

وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم قد بعث برسائل مماثلة إلى الأمراء والملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام .

وطلب حاطب الإذن في الدخول ، فأذن له ، وأدى الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد :

فإني أدعوكَ بدعاية الإسلام ، أسلِمْ تسْلَمْ ، يُؤْتِك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . ﴿ ياأهلَ الكتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ، ألاَّ نعبدَ إلا الله

ولانشركَ به شيئاً ،ولايتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولَوْا فقولوا : اشهدوا بأنّا مسلمون ﴾(١) .

وقرأ المقوقس الكتاب ثم طواه بعناية وتوقير ، ثم سأل رسول النبي، صلى الله عليه وسلم ، أن يحدثه عن النبي ، الجديد ويصِفَه له ، فقد ورد في كتابهم الإنجيل ذكرُ النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وأنه سيأتي نبي من بعد عيسى عليه السلام ، اسمه أحمد ، ثم قال لحاطب الرسول :

– كنت أعلم أن نبيا قد ظهر ، وأنه سيخرج في الشام ، وهناك مخرج الأنبياء ، وأراه قد خرج في أرض العرب ، ولكنَّ القبط لاتطاوعني .

وخاف المقوقس من قومه ، وخشي على ملكه أن يفارقه ، ثم دفع بردِّه إلى رسول النبي ، صلى الله عليه وسلم :

– أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه وماتدعو إليه ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين

---

(١) سورة آل عمران الآية /٦٤/ .

لهما مكان من القبط عظيم ، وبكسوة ومطية تركبها ، والسلام عليك .

وانطلق حاطب راجعا إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ومعه مارية وأختها سيرين وعبْد خَصي وألف مثقال ذهبا ، وأثوابا من نسيج مصر ، وبغلةً شهباء(١) ، وبعض الهدايا الأخرى .

ومضت مارية وأختها سيرين ، لاحول لهما ولاقوة ، إلى المجهول الذي لايعرفان عنه شيئا ، مضت ودموع الفراق تنسكب على خديها ، وعذاب الوداع يكاد يمزق قلبها ، مضت وهي تحاول أن تملأ عينيها من أرضها الحبيبة قبل أن تغيب شمسها إلى الأبد .

وشعر حاطب بما ينتاب مارية وأختها من عذاب وضيق وألم ، وبما تشعران من شجن الفراق ولوعة البعاد ، فاقترب منهما وجعل يروي لهما قصصا عن بلاده ، وعن مكة المكرمة والحجاز .

---

(١) شهباء : المائلة إلى الشقرة .

ثم تحوَّل ليتحدَّث عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وعن أخلاقه الحميدة ، وخصاله الرشيدة ، وصِدقِهِ وأمانته ، وبُعْدِه عن المفاسد ، ودعوتِه إلى عبادة الله عز وجل ، علَّه يخفف عنهما آلام الغربة ، وينسيهما أوجاعهما .

فوجدت الشابتان في حديث حاطب متنفسا لهما ، فأنِسَتَا إليه وانشرح قلبهما لحديثه ، ويقال إنَّ حاطبا عرض الإسلام على مارية وأختها سيرين ، فدخلتا في الدين الجديد .

واقترب الركب من المدينة ، ووصل إليها سنة سبعٍ من الهجرة ، حينها كان النبي ، صلى الله عليه وسلم عائدا من الحديبية بعد أن عقد الهدنة مع قريش .

﴿ زواجها من النبي ﴾

أُعجِبَ النبي ، صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية ، رضي الله عنها ، فاحتفظ بها لنفسه ، ووهبَ أختها سيرين لشاعره حسان بن ثابت .

وأُشِيع النبأ ، نبأ زواج النبي ، صلى الله عليه وسلم من شابةٍ مصرية جميلة ، جَعْدَةِ الشعر ، قد جاءت هدية من أرض النيل ، وتحاول السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، مااستطاعت من جَهدٍ ، كي تعلِلَ نفسها بأَنْ لاخطر عليها من هذه الشابة الجديدة ، فما هي سوى جارية غريبة ، أهداها سيّدٌ إلى سيّد .

لكنّ بوادر القلق أخذت تلوح على وجهها ، فقد رأت اهتمام النبي ، صلى الله عليه وسلم بمارية ، رضي الله عنها ، وإكثاره من التردد عليها ، حتى كاد يقضي جُلَّ[1] ليله ونهاره عندها .

ولادة إبراهيم

ووجدت مارية القبطية ، رضي الله عنها ، في كنف رسول الله ، صلى الله عليه وسلم الرعايةَ والحنان ، فاطمأن قلبها وسكن فؤادها ، وأرضاها أن يضرب عليها الحجاب ، وهي الغريبة الوحيدة التي لاأب بقربها ولاأم ولاأخ ، سوى أختها سيرين التي كانت تزورها بين الحين والآخر ، تتجاذبان أطراف الحديث .

---

(١) جُلَّ : أغلب .

وانحصرت أمانيها وآمالها في ذلك السيّد العظيم ، صلى الله عليه وسلم ، الذي كان لها السيد والصاحب والأهل والوطن ، وصار كلُّ همِّها أن تحظى برضى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وأن يرزقها الله بطفلٍ لتكون أشبه بالسيدة هاجَر ، والتي جاءت من أرض النيل أيضا ، وحملت من زوجها " إبراهيم " عليه السلام ، فأثارت غيرة زوجته السابقة " سارة " التي وهبته هي نفسها هاجر ، لتملأ أصقاع العالم بخبرها ، وليكون مسعاها بين الصفا والمروة شعيرة مقدسة من شعائر حج العرب في الجاهلية والإسلام .

فهل يتحقق حلمها ؟ وهل تكون مارية أما لولد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، كما كانت هاجر أما لولد إبراهيم ؟ ماأبعد هذا الحلم عن الحقيقة ، لقد تزوج النبي ، صلى الله عليه وسلم منذ أن ماتت السيدة خديجة ، رضي الله عنها أكثر من امرأة ، ولكنَّ الله لم يرزق إحداهنّ بولدٍ ، منذ أن تخطف الموت أبناءه من خديجة ، رضي الله عنها .

وكيف يكون لها ولد ، وقد شارف النبي ، صلى الله عليه وسلم على الستين من عمره ، سبحانه وتعالى ، جَلَّت قدرتُهُ ، ووسِعت رحمتُهُ عبدَهُ أبا القاسم ، كما وسِعت قبله عبدَيْهِ إبراهيم وزكريا .

وشاءت قدرة الله عز وجل أن تحملَ مارية القبطية ، وسرتِ البشرى في أنحاء المدينة ، كما تسري النارُ في الهشيم(١) ، أنَّ النبي ، صلى الله عليه وسلم سيُرزقُ بولدٍ من مارية المصرية .

يالَوَقْعِ هذا النبأ العظيم في قلوب نساء النبي ، صلى الله عليه وسلم !! وياله من خبر تناقلْنَهُ بينهنَّ ، أيفْرَحْنَ لِما سيُرزقُ به النبي ، صلى الله عليه وسلم ؟ أم يجزعْنَ غيرةً وحسداً ؟ .

وهل يمكن لهذه الغريبة الطارئة أن تحْمِلَ وأن يُمُنَّ الله عليها بولد ، بينما حرمهُنَّ الله الولد .

وخاف النبي ، صلى الله عليه وسلم على مارية ، فنقلها إلى مكان آخر قرب المدينة ، توفيرا لراحتها وسلامتها .

وراحَ عليه الصلاة والسلام ، يطْمئِنُ عليها ويرعاها ويعتني بصحتها، ففَرْحَتُهُ لم تكُنْ تقِلُّ عن فرحةِ مارية القبطية نفسِها .

---

(١) الهشيم : العشب اليابس .

وكانت أختها سيرين لاتفارقها ، إلى أن جاءها المخاضُ ، وأزِفَتْ(١) ساعةُ الولادة ذات ليلة من شهر ذي الحجة ، سنة ثمان للهجرة ، وانتحى(٢) النبي ، صلى الله عليه وسلم جانب الدار ، يدعو الله عز وجل ، أن يخفف عن مارية آلام الولادة ، وأن يرزقه بولد صالح.

وأطلَّتِ القابلة بوجهها البشوش ، تَزُفُّ البشرى إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، الذي أكرمها كلَّ الإكرام ، وأسرع إلى مارية رضي الله عنها ، ليطمئنَّ عليها ، وليقدم لها التهنئة بولدها الذي أعتقها(٣) .

وحمل النبي ، صلى الله عليه وسلم ابنه برفق ، وضمَّهُ إلى صدره بحنان ، ومسحَ رأسه بكفِه الشريفة ، وسمّاه " إبراهيم " . وتصدَّقَ صلى الله عليه وسلم ، على الفقراء والمساكين بوزنِ شعر الوليد فضةً ، وجاءه جبريل عليه السلام مهنئا ومباركا ، وقال :

– السلام عليك ياأبا إبراهيم .

---

(١) أزِفَتْ : حانت .

(٢) انتحى : وقف جانبا .

(٣) أعتقها : حررها من الرق .

وعندئذ اطمأنَّ قلبُ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفرِح برحمة ربه تعالى ، وتبرِئَةِ مارية ، التي حاول المنافقون أن يتهموها بشرفِها، فزعموا أن قبطيا كان يزورها بين الحين والآخر ، كما حاولوا في حديث الإفك أن يتهموا السيدة عائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها.

واختار النبي ، صلى الله عليه وسلم مرضعاً لولده ، وجعل في حيازتها سبعا من الماعز ، كي ترضعه بلبنها إذا شحَّ(١) ثديها ، إذ اعتاد العرب آنذاك أن يختاروا لأولادِهم مرضعة من البادية ، ليكتسبوا القوة والصحة والخصال الحميدة . وأخذ الطفل ينمو رويدا رويدا ، وماكاد يدبُّ على قدميه ، حتى كانت المصيبة والخطب الجلل .

موت إبراهيم

فقد مرِضَ إبراهيم ، ولَمَّا يبلغ العامين من عمره ، واشتدَّ عليه المرض ، فجزعَتْ أمه التي لم تطُلْ فرحتها ، ودعت أختها سيرين ، لتقوما على رعايته والسهر عليه ، وكان قلب الأم يتفطر حزنا وألما ، وعيناها تجودان بالدموع ، وهي ترى ابنها أمامها يذوب رويدا رويدا .

---

(١) شحَّ : قلَّ .

فتطلق الزفراتِ وتتعالى من جوفها الآهات ، بينما كان إبراهيم يذوي كوردة ندية تحت شمس محرقةٍ ، وتنطفئ فيه الحياة .

وجاء أبوه ، صلى الله عليه وسلم متثاقلا ، وحمل إبراهيم من حجر أمه ، ووضعه في حجره محزون القلب ، دامع العين ، ضائع الحيلة، لايملك إلا أن يقول ، في رضىً وتسليم بأمر الله عز وجل ، سوى :

– " إنا ياإبراهيم ، لانغني عنك من الله شيئا " .

ثم انفلت الدمع من عينيه ، وانحنى على جثمان ابنه ، فقبَّله القبلة الأخيرة ، ثم تمالك نفسه وقال ، صلى الله عليه وسلم :

– " ياإبراهيم ، لولا أنَّه أمرٌ حقٌ ، ووعدٌ صِدْقٌ ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنَّا عليك حزنا هو أشد من هذا . وإنا بك ياإبراهيم لمحزونون" .

ثم قال النبي ، صلى الله عليه وسلم :
– " تبكي العين ، ويحزن القلب ، ولانقول مايسخط الرب " .

وودَّعت الأمُّ الثكلى ابنها بقلب حزين ، وعين دامعة ، ولكن ماكان منها إلا أن تقتدي برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وتتعلم من صبره وقت الصعاب والمصائب ، وتردد ماسمعته منه :

– إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم نظر النبي ، صلى الله عليه وسلم إلى مارية رضي الله عنها ، في عطف ورثاءٍ ، وقال مواسيا :

– " إن إبراهيم ابني ، وإنه مات في الثدي ، وإن له لظِئرين(١) تكملان رضاعه في الجنة " .

وغُسِل الصغير ، ووضع على سرير صغير ، وصلّى عليه أبوه ، صلى الله عليه وسلم ، وكبَّر أربعا ، ثم سار وراءه إلى البقيع(٢) ، وأنزله بيده في قبره ، ثم سوّى التراب عليه ، وندّاهُ بالماء . وقَفَلَ المشيعون

---

(١) ظِئرين : مفردها ظئر ، وهي المرأة المرضع .

(٢) البقيع : منطقة قرب المدينة ، وهي مقبرة أهل المدينة .

عائدين إلى المدينة ، واجمين(١) ، وانكسفت الشمس ، فقال قائلهم :

– إنها انكسفت لموت إبراهيم .

وسمع النبي ، صلى الله عليه وسلم مايقوله الناس ، فقال :

– " إن الشمس والقمر ، آيتان من آيات الله ، لاتخسفان لموت أحد ولالحياته " .

ولملَمَ النبي ، صلى الله عليه وسلم جراحاتِهِ ، وطواها في قلبه مستسلما صابرا لقضاء الله عز وجل .

وانزوت مارية ، رضي الله عنها، تحاول أن تتجمل بالصبر والسلوان ، فإذا خانها الصبر ، خرجت إلى البقيع ، لتجد راحتها في البكاء على فقيدها .

وفاتها

و لم تطُلْ أيام النبي ، صلى الله عليه وسلم بعد موت إبراهيم ، فما إن أَهَلَّ ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة ، حتى شكا النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وانتقل إلى جوار ربه .

---

(١) واجم : عابس .

وبقيت مارية القبطية ، من بعده خمس سنوات تعيش في عزلة عن الناس ، لاتلقى غير أختها سيرين .

إلى أن أسلمت روحها الطاهرة ، سنة ستَّ عشرةَ للهجرة ، في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه ، ودُفِنَت في البقيع .

رضي الله عنها